مجموعة سيرة الرسول

بإشراف

محمد أحمد برانق

٢٤

الذروة

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

. . . . . .

١

﴿ يمنُّون علَيك أَن أَسلَموا قُل لاَّ تَمنُّوا علَي إِسلاَمكُم بلِ اللهُ يمن علَيكُم أَن هداكُم لِلإِيمانِ إِن كُنْتُم صادِقِين﴾.

آية أنزلت فيما أنزل الله على نبيه محمد من آيات بشأن الوفود والجماعات التي أخذت تفد وتأتي إلى النبي مقدمة إليه إسلامها، عارضة إيمانها من تلقاء نفسها، دون أن يرسل النبي دعاته لدعوتها إلى الإسلام، وذلك بعد أن أصبح للمسلمين في شبه جزيرة العرب من العظمة والمهابة ما جعل بعض القبائل ترى أن لا كيان لها ولا

حياة إلا بإتباع دين الله والانضمام إلى المسلمين، وما جعل بعض القبائل ترى أن في وفودها إلى الرسول لتقديم إسلامها إليه دون دعوة منه مناً تمن بها عليه وسببا في أن تقول للرسول: أتيناك قبل أن ترسل إلينا، وهذا تفضل منا.

وهكذا أنزل الله على نبيه أن يكون جوابه للذين يمنون عليه بإسلامهم أن: لا تمنوا على إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين.

وإذا كان في بعض الوفود التي وفدت تقدم إسلامها للنبي من أقدمته لذلك حاجة، ودفعته غاية، فقد قدم أكثرها ليؤمن بالله ورسوله إيماناً صحيحا، فلا رياء ولا نفاق ولا من.

كان عروة بن مسعود الثقفي –من سادات ثقيف– متغيبا عن الطائف حين صحار النبي لها فلما عاد وعلم بحصار النبي للطائف ورجوعه عنها مؤجلًا فتحها إلى فرصة أخرى. أسرع هو إلى اللحاق برسول الله في المدينة حيث قدم إليه إسلامه. عارضا أن يكون هو الرسول إلى قومه. الداعي لهم إلى الإسلام. المحبب لهم الإيمان بالله.

وقال له الرسول، لما يعرف من تعصب ثقيف لدينها واعتزازها بأصنامها: يا عروة؛ إنهم قاتلوك!

فكان جواب عروة للرسول أن قال: يا رسول الله؛ أنا أحب إليهم من أبنائهم وأبصارهم.

وسار عروة إلى الطائف فدخلها ليلاً. وسار توا إلى منزلة دون أن يتوجه إلى اللات صنمهم الذي يعبدونه ويعظمونه ويطوفون به وعجب أبناء ثقيف مما رأوا، وأنكروا ما فعل عروة، فساروا إليه يستطلعون الأمر.

وكان أن أنبأهم عروة بإسلامه، وكان أن دعاهم إلى الدخول في الإسلام، فلاموه واتهموه في عقيدته، وخرجوا من عنده يتشاورون ويتدبرون هذا الأمر الخطير.

وأصبح الصباح. وقد اعتزم عروة أن يبادر إلى إظهار قومه على ما في الإسلام من حق، وما في دينهم الذي يتبعونه من باطلٍ فوقف في مكان عالٍ من داره يناديهم، داعيا إياهم للصلاة ولعبادة الله وحده.

ولم يستطع قومه الذين عرفوا باعتزازهم بديانتهم، وعرفوا بالشدة في الدفاع عن عقيدتهم، أن يستمعوا لعروة، أو أن يسكتوا عليه، على الرغم مما كان له عندهم من مكانة، وعلى الرغم مما كان يتمتع به بينهم من منزلة، فآذوه وشتموه وصوب إليه أحدهم نبله فأصابه بسهم نال منه مقتلاً.

وهكذا قتل عروة بيد قومه وهو يدعوهم إلى الإسلام وقد حذره من ذلك الرسول، وفاضت روحه؛ ونفسه راضية مطمئنة، يقول لمن حوله من آله وقومه: كرامة أكرمني الله بها. وشهادة ساقها الله إلى، فليس في إلا ما في الشهداء الذي قتلوا مع رسول الله قبل أن يرتحل عنكم، وأوصى عروة أن يدفن مع هؤلاء الشهداء، فدفنه أهله معهم.

فهل كان في قتل عروة ما أزاح عن ثقيف شبح الإسلام الذي كانت تخافه وتخشاه، وأبعد عنها دعوة محمد صلى الله عليه وسلم التي قتل سيد من ساداتها بسببها...؟؟!!

لا... فإن أبا مليح بن عروة، وابن عمه قارب بن الأسود، ما لبثا أن خرجا إلى رسول الله فأسلما بين يديه. ثم ما مرت أشهر قليلة على ذلك حتى وجدت ثقيف نفسها وقد أحاط بها الإسلام من كل جانبٍ.

فهنا وهناك قبائل قد أسلمت.

وهنا وهناك مسلمون يتربصون بثقيف المشركة.

وهنا وهناك رجال يعترضون طرق رجالها، ومسالك قوافلها، فهي لا تأمن معهم على نفسه ولا على أموالها.

وتدبر الموقف رجال من ثقيف، ورأوا أن يبعثوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم بسيد من ساداتها هو عبد يا ليل ليفاوضه في الأمر وخشى عبد يا ليل على نفسه أن يصيبه ما أصاب عروة إذا ما عاد إلى قومه، فرفض

أن يكون رسول ثقيف إلى محمد صلى الله عليه وسلم إلا إذا خرج معه لذلك نفر آخر من الرجال، وذلك ليـ.شغل كل رجل منهم جماعته إذا ما عادوا بما اتفقوا عليه مع محمد صلى الله عليه وسلم، ويقنعهم به.

وخرج عبد يا ليل في خمسة من الرجال قاصدين المدينة.

وبالقرب من المدينة أبصر بهم المغيرة بن شعبة، وعرف أنهم ما جاءوا إلا وهم رسل لقومهم، وما أرسـ.ل بهم قومهم إلا ليفاوضوا محمدا صلى الله عليه وسلم في الصلح، وليعرضوا عليه الإسلام.

فأسرع إلى محمد ليزف إليه هذه البشرى الطيبة.

والتقى أبو بكر بالمغيرة، ورأى ما هو فيه من إسراع، فاستفسره الأمر.

فأخبره خبر وفقد ثقيف، فكان من فرح أبي بكر لهذا الخبر أن قال للمغيرة:

أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله، حتى أبشره أنا هذا البشرى.

وأسرع أبو بكر فبشر الرسول بقدوم وفد ثقيف، وعاد المغيرة إلى رجال ثقيف فعلمهم كيف يحيون الرسول بتحية الإسلام إذا ما مثلوا بحضرته.

ومثل الوفد بحضرة الرسول، وبالرغم مما علمهم المغيرة من تحية الإسلام فقد حيوا الرسول بتحيتهم، تحية الجاهلية.

وأمر الرسول بأن تضرب لهم خيام بمكانٍ في جانب المسجد، وأن يمشي بالسفارة بينه وبينهم خالد بن سعيد بن العاص.

وأقام رسل ثقيف بهذه الخيام يسمعون رسول الله إذا ما صلى بالمسلمين، ويسمعون المسلمين في صلاتهم، وترتيلهم القرآن، وتكبيرهم، وكان يقوم بالسفارة بينهم وبين النبي خالد بن سعيد، فيسير إلى الرسول بما يريد دون أن يكون عليه الاتفاق بينهم وبين محمد، ويسير إليهم بما يملي عليه الرسول.

وكان ما عرض عبد يا ليل ورفاقه لإسلام قومهم وصلحهم مع الرسول هو ألا يهدم صنمهم اللات ثلاث سنين، وأن يعفوا من الصلاة. وكان جواب الرسول عن ذلك الرفض كل الرفض، والإباء كل الإباء.

وعاود رسل ثقيف الرجاء في أن تترك لهم اللات سنتين؛ فعاود محمد صلى الله عليه وسلم الرفض؛ ثم طلبوا أن تكون المدة سنة، فرفض محمد صلى الله عليه وسلم؛ فطلبوا أن تكون شهرا، فرفض محمد صلى الله عليه وسلم وأبي أشد الإباء.

فعاودوا طلبهم في أن يعفيهم النبي من الصلاة، فكان جواب النبي؛ إنه لا خير في دين لا صلاة فيه.

وإزاء هذا الرد الحاسم من النبي، وأمام إرادته الحازمة، وتصميمه القاطع، لم ير القوم بدا من أن ينزلوا عما طلبوا، ويرضوا بما يدعو إليه النبي سائر المسلمين، ولكنهم التمسوا أن يعفوا من أن يكسروا أصنامهم بأيديهم، فكان جواب النبي لهم: أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم منه.

وأسلم عبد ياليل ورفاقه –وكان ذلك في رمضان– فصاموا مع المسلمين ما بقي منه، وكان بـ.ـلال يحمـ.ـل إليهم طعامهم في إفطارهم وسحورهم، فيأكلون وقد أمنوا جانب المسلمين بعد ما كانوا لا يتناولون طعاما يأتيهم إلا بعد ما يأكل منه خالدا أولا خوفًا من أن يكون قد دس لهم فيه ما يخشى منه على حياتهم.

ولما حان موعد رحيلهم كتب لهم النبي كتاب صلح بينه وبين ثقيف، وأمر عليهم من بيـ.ـنهم عثمـ.ـان بـ.ـن العاص –وكان أحدثهم سنًا– ولكنه كان أحرصهم على تعلم القرآن، وأفضلهم في التفقه في الدين.

وبعث الرسول مع الوفد بأبي سفيان بن حرب، وبالمغيرة بن شعبة، وكان لهما بين ثقيف أقارب، ولهما مع أهلها مودة، ليقوموا بهدم اللات بدلاً من أن يقوم بذلك أحد من أهلها.

ووصل عبد يا ليل ورفاقه إلى الطائف يعرضون عليهم ما اتفقوا عليه مع الرسول.

وتقدم أبو سفيان والمغيرة لهدم اللات.

وأمسك المغيرة بالمعول يكسرها ويهدمها ونساء ثقيف يبكين ويندبن، ورجالها يأسفون ويتحسرون، وهم لا يملكون أن يمنعوا المغيرة من هم صنمهم المعبود.

وبذلك هدمت اللات آخر صنم كان يعبد بالحجاز. وأسلم أهل الطائف بعد مكابرة، وبعد عنادٍ، ونال الإسلام بذلك نصرا أي نصرٍ.

* * *

٢

وتوالت الوفود والجماعات تأتي طائعة مسلمة إلى رسول الله: منها ما كان الدافع لها في أول الأمر خشيتها تيار الإسلام وقوته وسطوته، ومنها ما كان الدافع لها الإيمان وحده.

وفي وسط هذا التيار الجارف الذي قارب أن يعم الجزيرة كلها، أتى موعد الحج إلى بيت الله، وأوفد محمد صلى الله عليه وسلم أبا بكر ليحج بالمسلمين.

وخرج أبو بكر في ثلاثمائة حاج مسلم يقصدون بيت الله في مكة وغادرت جماعات من المشركين قبائلهم ومنازلهم كذلك يقصدون مكة.

فهل يا ترى سيكون بيت الله الذي طهره النبي من الأوثان والأصنام معبدا للوثنيين المشركين، بما كان بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم من عهد مضمونه أنه لا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام؟!

وأنزل الله على نبيه سورة براءة وفيها ما يحله من عهده للمشركين بعد عامه هذا، إلا من كان عهده لهم إلى أجل مسمى فيبقى العهد قائما حتى ينتهي أجله؛ وكان ذلك بعد أن خرج أبو بكر إلى مكة.

وبعث الرسول بعلي بن أبي طالب في إثر أبي بكر إلى مكة ليخطب في الناس يوم اجتماعهم بعرفة بما أنزل الله على نبيه من آيات.

ولحق علي بأبي بكر فسأل أبو بكر عليا: أأمير، أم مأمور؟

فقال علي: بل مأمور، إنما جئت لكي أتلو على الناس ما أنزل الله على نبيه.

ولما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج وقف على ينادي فيهم بما أنزل الله على رسوله م.ن س.ورة براءة، بما يحل النبي من عهده للمشركين إلا ما كان منه إلى أجل مسمى، وبما يعد منهجا يسير عليه الرس.ول، ويجاهد بتعاليمه المسلمون: لتثبيت الإسلام، ومحاربة كل ما من شأنه إضعافه، أو التأثير عليه.

ولما فرغ على من تلاوة ما أمره الرسول بتلاوته قال:

أيها الناس؛ إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان "وكان م.ن طقوس كثير من المشركين أن يطوفوا حول بيت الله وقد تجردوا من ملابسهم" ومن كان له عند رسول الله عه.د فهو إلى مدته، ولكم مهلة أربعة أشهرٍ من يومنا هذا حتى يرجع كل قومٍ إلى مأمنهم وبلادهم.

ولما قضى أبو بكر بالناس مناسك الحج، عاد هو وعلي ومن معهما من أهل المدينة إلى المدينة، وانصرف المسلمون من العرب إلى محاط قبائلهم، وعاد المشركون كل إلى دياره يتدبرون أمرهم فيما وجه ـه لهـ م محمـ د صلى الله عليه وسلم من إنذار على لسان علي، وهو ألا يقربوا بيت الله بعد عامهم هذا لأنهم نجس. وأن يعاهدوا محمد صلى الله عليه وسلم على ألا يقربوا من المسلمين، أو يتعرضوا لهما بما يؤثر في إسلامهم، أو يزعزع من عقيدتهم، أو يحاربهم محمد ويجاهدهم المسلمون حتى يتوبوا ويؤمنوا، وذلك بعد ما كان النبي لا يقاتـ ل إلا مـ ن قاتله، ومن كف يده كف عنه.

وساءل المشركون بعضهم بعضا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش؟!

حقًا! ما يصنعون وأهل مكة قد أسلموا. وحق عليهم جهاد المشركين وصدهم عن بيت الله؟!!

وساءل المشركون بعضهم بعضا: ما تصنعون وقد أسلمت العرب؟!!

حقًا! ما يصنعون وهذه جزيرة العرب قد أسلمت إلا بعض قبائل، وبعض جماعات لا يستطيعون وحدهم أن يقاوموا تيار الإسلام، أو أن يقفوا في طريقه؟ فهو جارف عارم شديد.

وسارت وفود المشركين تتوالى إلى رسول الله لتقدم إسلامها ومن يومئذ لم يحج إلى الكعبة مـ.شرك، ولـ.م يطف بالبيت عريان.

واستقبل النبي الوفود والجماعات التي جاءت تدخل في دين الله أفواجا يتقبل مـ.نهم إسـ.لامهم، ويـ.زودهم بتعاليمه، ويبعث إليهم، من يعلمهم ويرشدهم.

فاستقبل رسل ملوك اليمن من حمير يعرضون الإسلام، واستقبل وفود كندة في ثمانين راكبا، وقـ.د رجلـ.وا شعورهم، وتكحلوا، ولبسوا جبب الحبرة. وله سجف من حرير، فلما دخلوا على النبي، قال لهم:

ألم تسلموا؟!! قالو: بلى.

قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟!!

فشقوه عنهم، ورموا به.

واستقبل الرسول وفدا من بني حنيفة من أهل اليمامة، فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على النبي يعرضـ.ون إسلامهم وقد تركوا على رحالهم رجلاً منهم اسمه مسلمة بن حبيب.

فلما عرض رجال الوفد إسلامهم، ودفع إليهم ما أمر النبي بأن يدفع لهم ذكروا للنبي صـ.احبهم مـ.سيلمة، وتركهم له بجانب رحالهم فأمر النبي له بمثل ما أمر به للرجل منهم، وهو يقول:

أما إنه ليس بشركم مكاناً وذلك لقيامه بحفظ متاع أصحابه.

وانصرف الوفد إلى اليمامة وقد ذكروا لمسيلمة ما قال النبي عنه، فما إن وصلوا إلى اليمامة حتـ.ى ارتـ.د مسيلمة، وأعلن أنه نبي أشرك مع محمد في النبوة، بدليل قول النبي لرفاقه:

إنه ليس بشركم مكاناً.

وصار يشجع في القول محاولاً بذلك أن يضاهي القرآن، داعيا الناس إلى الإيمان به وتصديقه، محللاً لهـ.م الكثير مما حرم الله.

وأرسل مسيلمة إلى النبي كتابا مع رسولين له، يقول فيه:

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليكم، أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنـ.ا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

فلما اطلع محمد صلى الله عليه وسلم على الكتاب ظهر الغضب على وجهه، وقال للرسولين: فما تقـ.ولان أنتما؟

قالا: نقول كما قال صاحبنا.

قال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

وكان جواب النبي على كتاب مسيلمة:

(إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده).

ولم يقف أمر ادعاء النبوة في ذلك الحين على مسيلمة الكذاب هذا، بل ادعى مثل ذلك بصنعاء الأسود العنسي، وادعى بنجد طليحة زعيم بني أسد، ولكنهما لم يستطيعا المجاهرة بادعائهما الكاذب هذا في حياة النبي.

وكان ممن جاهر بالعداوة للرسول عامر بن الطفيل الذي غدر بأصحاب رسول الله يوم بئر معونة، وكانوا قد ساروا إلى نجد ليعلموا أهلها، ويفقهونهم في الدين وذلك بأن حرض عليهم من قتلوهم غدرا.

جاء عامر بن الطفيل هذا إلى رسول الله مع جماعة من قومه يبغون الإسلام وكان منهم أربد بن قيس، وفي نيته ونية أربد الغدر برسول الله لو استطاعا إلى ذلك سبيلا.

فلما أسلم وفدهم بين يدي رسول الله، ولم يتمكن عامر وأربد من تنفيذ ما اعتزما عليه، غادر عامر الرسول وهو يقول: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً.

فلما ولى قال النبي يناشد ربه:

اللهم اكفني عامر بن الطفيل.

ولم يصل عامر إلى بلاده، فقد أصابه الطاعون في عنقه وهو بالطريق إليها، فأنزله من معه في دار امرأة من بني سلول، لعجزه عن مواصلة السير، فصار يقول لأصحابه:

يا بني عامر؛ أغدة كغدة البعير، وموتًا في بيت امرأة من بني سلول.

ثم ما لبث أن فتك به الطاعون فمات.

أما أربد فقد سار إلى قومه، فسألوه: ما وراءك يا أربد؟! يستفهمونه عما كان بينه وبين محمد، فقال:

لا شيء، ولكم أود أن يكون عندي الآن فأرميه بالنبل حتى اقتله.

ولم يلبث أربد بعد قوله هذا إلا يوما أو يومين، ثم خرج ببعير له يريد بعيه، فنزلت عليه صاعقة فصعقته.

ولم يعد أمر مثل هؤلاء يشغل بال الرسول، ولم يعد لهم من التأثير على الإسلام ما يخشى منهم عليه، بـ.ل كان على الرسول أن يتمم رسالته بأن يبعث إلى من لم يسلموا بعد من جماعات صغيرة يدعوهم إلـ.ى الإسـ.لام، وكان عليه أن يرسل برسله ودعاته إلى شتى أنحاء جزيرة العرب يعلمون ويفقهون أهلها فيما اتبعوا من دين الله.

وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بدعاته ورسله إلى هنا وهناك، وأوصى كلا منهم بما يجب عليه أن يتبعه مع من أرسل إليهم من الأقوام. فقال يوصي معاذ بن جبل، وقد أرسله إلى اليمن حين انتشر بها الإسـ.لام لـ.يعلم أهلها ويرشدهم، وكان بها جماعات من اليهود والنصارى: "يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك ستقدم على قومٍ من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

ودخل في دين الإسلام كثير من نصارى نجران، ومن لم يدخل منهم في الإسلام أرسل محمد صلى الله عليه وسلم إليهم بخالد بن الوليد يدعوهم إلى ذلك، فلم يلبثوا أن أسلموا، وسار وفد منهم إلى الرسول فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

كما أوفد علي بن أبي طالب في ثلاثمائة فارس إلى جماعة من أهل اليمن أبوا أن يخضعوا لدعوة الإسلام يدعوهم إلى ذلك، وهكذا ظل محمد صلى الله عليه وسلم يبعث برسله ودعاته لإتمام رسالته، حتى بلغ الإسلام في شبه الجزيرة ذروته.

وبقي على الرسول –وقد استدار العام منذ حج أبو بكر بالناس– أن يخرج هو ليحج بهم، وليسن للمسلمين كل ما يجب أن يتبعوه في مناسك حجهم.

* * *

٣

فلما أهل ذو القعدة من السنة العاشرة للهجرة أمر الرسول الناس أن يتجهزوا للحد؛ وقبل أن يقترب الـ.شهر من نهايته خرج محمد صلى الله عليه وسلم بما يزيد على مائة ألف من المسلمين يبغون بيت الله، وكان في صحبه النبي زوجاته جميعا، ومعه من النياق لهديه عدد كبير.

يا الله!! كم هي فرحة المسلمين الذين أتوا من كل حدبٍ وصوبٍ لاجتماعهم هذا...!! وكم هـ.و سـ.رورهم بمسيرهم لحج بيت الله بصحبة الرسول!!

ثم كم هي فرحة الرسول باجتماع أهل جزيرة العرب من حوله مسلمين..!! وكـ.م هـ.و سـ.روره بثمـ.رة رسالته...!!

وبذي الحليفة اجتمع إلى رسول الله كل حجاج المسلمين يسوق أكثرهم هديهم معهم، وبذي الحليفـ.ة أحـ.رم الرسول بإزار ورداء، وأحرم معه المسلمون جميعا، ومن ذي الحليفة لبى النبي –يقول والمسلمون يرددون مـ.ن ورائه:

لبيك اللهم لبيك!!

لبيك لا شريك لك لبيك!!

إن الحمد والنعمة والشكر لك لبيك!!

لبيك لا شريك لك لبيك!!

يا الله... كم صوت من أصوات المسلمين ردد هذه التلبية الكريمة!!

وكم قلبٍ خشع لعظمته..!! وكم نفسٍ أخذت من مهابة الله...!!

وسار الحجيج يقطعون ما بين المدينة ومكة، ينزلون في كل مهبطٍ ومسجد يؤدون فريـضة الـصلاة، ثـم يواصلون سيرهم، حتى وصلوا إلى مكان اسمه سرف، عندئذ أهل النبي بالحج والعمرة، ونادى في أصحابه: مـن لم يكن معه هدى ينحره، فليهمل بالعمرة دون الحج.

ووصل الركب إلى مكة وقد مضى من ذي الحجة أربعة أيام، فسار النبي والمسلمون معه إلـى بيـت الله، وهناك أقبل النبي على الكعبة فاستلم الحجر الأسود، ثم طاف من حوله الكعبة سبعة أشواط مهولاً فـي الثلاثـة الأولى منها، ثم أتى مقام إبراهيم فصلى عنده. وعاد إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود.

وقال النبي لعمر بن الخطاب وقد رآه يزاحم لاستلام الحجر: يا عمر، إنك رجل قـوي، لا تـزاحم علـى الحجر فتؤذي الضعيف؛ إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر باسم الله.

وخرج النبي من حرم الكعبة إلى ربوة الصفا، فصعد عليها، وكبر الله ووحده؛ ثم نزل فسعى إلـى ربـوة المروة، وهو يقول للناس: اسعوا بين الصفاة والمروة، فإن الصفا والمروة من شعائر الله.

ورقى الرسول إلى المروة، وفعل عندها كما فعل عند الصفا، ثم نزل فعسى بين الصفا والمروة حتى أتم في سعيه سبعا.

فلما فرغ، وفرغ المسلمون من سعيهم، أمر النبي أن ينادي فيهم: من ليس معه هدى فليحل إحرامه، وكأنما عز على الذين ليس معهم هدى أن يحلوا إحرامهم بعمرة، دون عمرةٍ وحج معا، وكان من مناسك الحج قبل ذلـك أن يحرم الحاج للعمرة والحج بإحرام واحدٍ، جلب هديه معه أو لم يجلب، فكان أن ترددوا في أمرهم.

فلما بلغ النبي ما كان من ترددهم هذا، قال:

لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ولجعلتها عمرة ثم اشتريت الهدى، وأهللت للحج.

ودخل النبي إلى عائشة وبه من الغضب أثر مما كان من تردد المسلمين في تنفيذ أمره.

فسألته عائشة: من أغضبك يا رسول الله ادخله الله النار.

فأجاب: أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟!!

وحل الإحرام كل من لم يكن معه هدى حينما أتى إلى مكة، وكان فيمن حل أمهات المؤمنين، وفاطمة ابنة الرسول.

وفي هذه الآونة وفد علي بن أبي طالب من اليمن إلى مكة محرما بعد أن أدى المهمة التي أوفده فيها الرسول حيث بعث به لدعوة جماعة من أهل اليمن إلى الإسلام، فأسلموا بعدما عصوه في أول الأمر وحاربوه،

مما اضطر علي معه إلى قتالهم، ثم كان أن انتصر عليهم، وكان أن عاد وقد علم أن رسول الله قد خ.رج للحـ.ج فاستخلف على جنده رجلاً من أصحابه ولحق بالنبي.

وأتى مكة فدخل على زوجه فاطمة وقد خلعت عنها ملابس إحرامها، وتزينت ولبست الملابـ.س الملوذ.ة، فسألها:

لما فعلت ذلك؟

قالت: أمرنا أبي به.

وقص علي على النبي ما كان من أمر سفرته، وما كان من إسلام القوم الذي سار إليهم، فحمـ.د النبـ.ي الله على ذلك، ثم قال لعلي: يا علي، انطلق فطف بالبيت، وحل كما حل أصحابك، قال علي: يا رسول الله، إني قلـ.ت حين أحرمت: اللهم إني أهل بما أهل به نبيك ورسولك محمد.

فسأله النبي: فهل معك هدى؟

قال علي: لا؛ فأشركه النبي في هديه، وثبت على علي إحرامه حتى أدى مناسك الحج جميعا.

وسار محمد صلى الله عليه وسلم والحجيج إلى منى وقد أحرم كل من كان قد حل إحرامه.

وحين بزغت شمس اليوم التاسع من ذي الحجة ركب محمد صلى الله عليه وسلم نافقته القصواء. وتوجه هو والمسلمون فصعدوا جميعا جبل عرفاتٍ يلبون ويكبرون.

وضربت للنبي خيمة بالقرب من عرفات أقام بها حتى مالت الشمس ذلك اليوم. ثم اسر راكبا ناقته حتى أتى بطن الوادي، وهناك وقف يخطب في جمع المسلمين بصوت جهوري، يردده من خلفه ربيعة بن أمية بن خلف حتى يسمع جميع المسلمين الذين لم يجتمعوا في يوم بمثل ما اجتمعوا في هذا اليوم، وسمعوا خطبة الرسول.

وكانت خطبة هي بحق دستور الإسلام، الذي يجب أن يسير عليه المسلمون وبدأ الرسول خطبته بقوله:

أيها الناس: اسمع قولي، فإني لا أدري!! لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا....!!

ثم أخذ محمد صلى الله عليه وسلم يرشد المسلمين، ويدعوهم إلى الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله: بـ.أن يحافظوا على أموال الناس، وعلى أعراضهم، وأن يردوا الأمانات إلى أصحابها، وأن يبعدوا عن الربا والقتل.

وبين الرسول للمسلمين في خطبته:

كيف تكون علاقة المسلم، بأخيه المسلم، وبأخيه الإنسان، ونادى المساواة بين الناس فلا فرق بـ.ين العبـ.د الحبشي والشريف القرشي.

وقال فيها: أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم، وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله اتقاكم لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ولما انتهى محمد صلى الله عليه وسلم من خطبته قال: اللهم، هل بلغت!

فأجاب الناس من كل ناحية: نعم يا رسول الله.

قال: اللهم اشهد.

أتم النبي خطبته وصلى الظهر والعصر، ثم قرأ على الناس قول الله:

﴿**الْيوم أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْممتُ علَيكُم نِعمتِي ورضِيتُ لَكُم الإِسلاَم دِينًا**﴾.

فبكى أبو بكر، وقد أحس من قراءة النبي لهذه الآية أن مهمة الرسول قد انتهت. وعرف أن يوم وفاته قـ.د بات جد قريب.

وغادر النبي والمسلمون عرفات إلى المزدلفة، فقضوا بها ليلتهم، وفي الصباح نزل النبـ.ي إلـ.ى المـ.شعر الحرام، ثم ألقى الجمرات في الطريق إلى منى.

وبمنى نحر النبي من هديه ثلاثًا وستين ناقة بعدد سنى حياته، ثم حلق رأسه، وبذلك أتم مناسك حجة.

وأتم المسلمون مناسك حجهم.

وغادر الحجيج من أهل المدينة مكة بصحبة الرسول عائدين إلى المدينة.

وسمى بعض المسلمين حجة الرسول هذه: بحجة الوداع لأن النبي رأى فيها مكة، والبيت الحـ.رام، وجبـ.ل عرفات... للمرة الأخيرة.

وسماها بعض المسلمين: حجة البلاغ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم أتم فيها تبليغ ما أمره الله أن يبلغـ.ه للناس، وهو الدين الإسلامي.

وسماها بعضهم: حجة الإسلام أو حجة التمام، لأن الله أكمل للناس فيها دينهم، وأتم عليهم فيها نعمته.

* * *

الفهرس

١ ..... ٤

٢ ..... ١٤

٣ ..... ٢٥

رقم الإيداع ٨٦٣٥/ ١٩٩١
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧-٠٢-٣٥٣٦-٩

١/٩١/٣٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع)